قراءة في قصيدة قديمة

ولقد دخلتُ على الفتاةِ الخدرَ

قصيدة المنخّل بن يزيد اليشكري هذه، من مفاتن الشعر العربي، وعيونه. إنها ابنةُ مَلَكةٍ شعرية،
ربّما لا أخت لها. اشتهرت هذه القصيدة بمقطعها الثاني الذي يبدأ:

صلاح نيازي

ولقد دخلتُ على الفتاة
الخدرَ في اليوم المطيرِ

المناهج التعليمية، تُهملُ مقطعها الأوّل، ربّما لأنّ مؤرخي الأدب لم يجدوا، واهمين، صلةً بين المقطعيْن، أو ربّما ظنّوا أنّه مربك للقارئ.

تبدأ القصيدة:

إنْ كنتِ عاذلتي فسيري
نحو العراق ولا تحوري

(لا تحوري: أي لا ترجعي. وفي التنزيل:"إنّه ظنّ أنْ لنْ يحور".

يعرّفنا الشاعر منذ البداية بنفسه. إنّه غريب الدار والأهل. تعيّره عاذلته بضيق ذات اليد. فيحيلها إلى عشيرة بالعراق، ويسألها أن تذهب ولا ترجع. (ربما كناية عن غنى النعمان بن المنذر).

يقول عن نفسه إنه ينتمي إلى فوارس (أحلاس الذكور) يتوهجون كالنار الحامية. وهم من سكنة ظهور الخيول، غزاة، يلبسون الدروع الحديد المثبتة بالمسامير (وهذا معنى: "محكمة القتير":

وأستلأموا وتلببوا
إنّ التلبب للمغير

(استلأموا: لبسوا السلاح. تلببوا: تحزّموا)

لكنْ رغم هذا التلبّب الثقيل، ينعمون بخفة حركة الصقور ومناوراتها. هذه إحدى براعات الشاعر في تصوير التباين بين ثِقَل الدروع، ورشاقة جنحيْ صقر:

وعلى الجياد المضمرات
فوارس مثل الصقور

لكنْ من هذه الحومة القتالية المدججة، يصحو الشاعر على واقعه المزري، فإذا هو ببيتٍ متداع

نهْب الرياح من جهاته الأربع، وهذ بالضبط معنى : "الرياح تتناوح":

وإذا الرياح تناوحتْ
بجوانب البيت الكسيرِ
ألفيتُني هشّ اليدين
بمرْي قدحي أوشجيري

(في بعض النسخ: الرياح تكمشتْ. وكذلك البيت الكبير بدل البيت الكسير) لكنّ تناوحت والبيت الكسير يناسبان مزاج القصيدة. إنهما مبرران للخروج وترك البيت. الأكثر حزناً أنه كان هشّ اليديْن لا تقويان على الترميم. وهنا تباين آخر بين أيادي الفوارس، ويديْ راوية القصيدة.

المهم إن المقطع الأوّل أعلاه بصليله، من جهة، والبيت الكسير من جهة أخرى ، إنما يمهدان أحذق تمهيد، للمقطع الثاني من القصيدة، ويجعلان خِدْرَ الفتاة ملاذاً، لاسيما وان دخول الشاعرعليها، تزامن مع نزول المطر، وفي الشتاء كما يرتئي ابن قتيْبة:

ولقد دخلتُ على الفتاة
الخدرَ في اليوم المطير

كذا ألمعية هذا الشاعر المنخّل. إنه لا يفاجئك بالحدث إلا بعد أن يمهّد له، وإذا أراد أن يزيده حدّة وعمقاً، أتى بنقيضه (والشيءُ يُظهر حسنَه الضدّ، كما في القصيدة الجاهلية المسماة: الدعدية).

على أية حال، يوحي حرف الواو في تعبير:"ولقد دخلتُ" إلى انتقالة ذهنية من فكرة إلى فكرة، أو من حالة إلى حالة.

للفعل دخل ثلاثة أبعاد:

الأوّل؛ يفيد دخل معنى التحقيق لغة. لكنّ هذا المعنى اللغوي لا يسعف،لأن الشاعر لم يُردْ إثبات شيء مشكوك فيه. لو أراد الشاعر هذا المعنى لقال: إني دخلت. تفيد الواو هنا فنّياً ان الشاعر كان يستعيد مع نفسه – ويتلذذ بما يستعيد – حلماً صعباً ونضيراً، وكأنه لا يصدّق ما حدث.

البعد الثاني؛ من "اليوم المطير"، وكأن الشاعر دخل إلى خِدْر الفتاة للحماية من المطر، وهذا هو معنى الدخيل قاموساً ومواضعة، بالإضافة إلى الدُخْلة والتبنّي بالمرأة.

البعد الثالث يأتي من : الخِدْر التي لا تعني السكن فقط، وإنما الظلام أيضاً. هكذا يصبح معنى الدخول: مغامرة عاطفية حثّ عليها المطر في الظاهر، وربما تحت جنح الظلام. أمام هذه الخلفية، وخلفية ملبس الدروع والحديد القتالية، تظهر كلمة: ترفل في البيت الثاني على أشُدّها دقة من حيثُ التوقيت، فهي بالإضافة إلى الخيال السمعي الواسع الذي يحتمل التداعيات الصوتية الآتية:(رفّ، ترف، فلّ)، فإنها تشكل المزاج النقيض، لملابس الشاعر الرطبة بفعل المطر.

بالإضافة فإنّ معنى رفل: جرّ ذيلَه، وتبختر، وجرّ الذيل والتبختر، يعنيان بطء الحركة والأمان. يمكن مقابلة هذه الحركة المطمئنة، بحركة الشاعر السريعة، وكأن المطر عجّله. لا ننسى كذلك كيف كان الشاعر خائفاً من هبوب الرياح على بيته الكسير المتداعي.

لكلمة الدمقس أهمية خاصة لأنها تعني الحرير الأبيض. يتداعى معنى اللون الأبيض ليس إلى ليلة الدخلة وإنما لابتعاده عن الرايات المتناحرة، وألوانها المتسايفة، في المقطع الأول.

لم ينتظرْ راوية القصيدة طويلاً، حتى بكّر بالغزل:

فدفعتها فتدافعتْ
مشي القطاة إلى الغدير
ولثمتها فتنفستْ
كتنفس الظبي الغريرِ

كان القارئ يتوقّع من رجلٍ وامرأة وحيديْن في خِدْر، وبعد الدفع والتدافع، أن يأخذ الحدث مجراه الطبيعي، إلاّ أنّ الشاعر ببراءة محبّبة، ينتقل في الشطر الثاني من مكان ضيّق هو الخِدْر، إلى فضاء مكشوف واسع هو الغدير، ومن زمان إلى سواه، وبذلك شوّش القارئ.

لننظرْ في البيت من ناحية فنية. يقول الشاعر:"فدفعتها فتدافعت" ولم يقلْ فاندفعت. لأن تدافعت تفيد هنا معنى شبيهاً بتدافع الموج، وهو فعل يدلّ على ليونة جسدها وبضاضته. هل كانت الفتاة مربربة ذات ترف ونعمة؟

ثمّ ألا توحي كلمة فتدافعت أيضاً برغبة جامحة بمعنى ما وكأنّها اختضّتْ بالرغبة والخوف اللذيذ؟ كذا تتساوق الصورة مع مشي القطاة البطء وهي ظمأى تنشد الماء. المعروف أن القطاة بطيئة السير، ومن هنا حرقتها بين شدة عطشها وبطء سيرها. (جاء في قاموس المعجم الوسيط: القطاة نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء، ويتخذ افحوصه في الأرض). وجاء في قاموس لسان العرب: سُمّيَ كذلك لثقل مشيه، ويقال في المثل إنّه أدلّ من القطاة لأنها ترد الماء ليلاً من الفلاة البعيدة. ألا تتناسب هاتان الصفتان: البطء وورود الماء ليلاً، مع فتاة ظمأى بعاطفتها في خدرها الليلي، وبطْء حركتها بدليل الفعل تدافعت؟

تظهر الرغبة الجامحة في البيت الثاني:

ولثمتها فتنفستْ
كتنفس الظبي الغرير

ما من شاعر، كما يبدو، استطاع أن يصوّر القبلة كهذا الشاعر العجيب. بات التنفّس المنحبس لهاثاً مرتجفاً، وهو حال مَنْ تتطعّم القبلة لأوّل مرة. زدْ على ذلك أنّ تنفّس الظبي الغَرير لا يخلو من رعشات خوف.

تتناده كلمة الغرير مع صورٍ موحية أخرى. جاء في قاموس تاج العروس:"غريرة: الجارية الحديثة السنّ التي لم تجرّب الأمور، ولم تكنْ تعلم ما يعلم النساء من الحبّ، قال الشاعر:

إنّ الفتاة صغيرة
غرٌّ فلا يُسرى بها

ومن حديث ابن عمر:"إنّك ما أخذتها بيضاء غريرة وهي الشابة الحديثة التي لم تجرب الأمور" .

(في بعض النسخ : البهير بدل الغرير، ولكنْ ما من مطاردة في الخدر لأنّ معنى البهير: انقطاع نفس من الإعياء والمطاردة).

يقول الشاعر بعد ذلك:

فرنتْ وقالت يا منخّل
ما بجسمك من فتور

قبل كل شيء تُكتب : فرنتْ في بعض النسخ : فدنت. قد لا تصحّ دنتْ هنا لأنّ الفتاة قريبة منه جداً فلا مجال للسير. بينما معنى الرنوّ: إدامة النظر في سكون طَرْف. كانت الفتاة مستغربة من فتور جسده. مرة أخرى نجد في بعض النسخ كلمة حرور بدلاً من فتور، ولكن ما من حرارة في القصيدة. العكس هو الصحيح. الفصل شتاء وكان الراوية منقوعاً بالمطر. المهم كانت فتاة الخدر حانية عليه ولم تكنْ متشكية منه. ظهر هذا الحنان بمخاطبته باسمه: يامنخّل وكأنها كانت تهمس له من شدة قربها منه. ربما بسبب هذه العواطف الحميمة، قال بعد ذلك:

وأحبّها وتحبني
ويحبّ ناقتها بعيري.

نلاحظ أيضاً أن راوية القصيدة حتى في هذا البيت ينتقل من الخدر الضيّق إلى البعير والناقة في الخارج. بهذه الوسيلة كبّر الشاعر حجم حبّه بتضمين حبّ ثانٍ لأن الصدى عادة يُعطي بعداً آخر للصوت. كان الشاعر ثملاً من تلك الحميميات. فهل ثمة عجب إنْ قال:

ولقد شربتُ من المدامة
بالصغير وبالكبير
فإذا سكرت فإنني
ربّ الخورنق والسديرِ
وإذا صحوت فإنني
ربّ الشويهة والبعير

ربما أراد الشاعر أنه دائم الشرب إن تيسر له المال الكثير، الدينار، أو تيسر منه القليل فقط فيشرب بالدرهم.

لكنّ صناعة الشعر في المقطع أعلاه على وجه الخصوص، محببة بارعة، لدرجة الإدهاش. فبالإضافة إلى أن المقطع قيل بمنتهى العفوية والصدق، فقد أظهر الشاعر وهو سعيد باعترافاته التي تنمّ عن ضعف إنساني حميم.

يفيد المقطع أعلاه أيضاً بأن الشاعر بات وكأنه مزيج من صحو وسكر، فلا تدري أيهما الصحو وأيهما السكر، تماماً مثل الخمر، إذا مزجت بالماء، يصبح من المستحيل فصلهما عن بعضهما بعضا. القصيدة صاحية ومخمورة في آنٍ واحد، وذات نهاية مفتوحة على احتمالات عديدة لا تتوقف عن النمو، ولاسيما التباين بين قصريْ الخورنق والسدير، وما يوحيان به، من ترف وخدم ورعية، من جهة، وبين الشويهة والبعير وخاصة الشويهة بصيغتها التصغيرية، إنما جعل رعيته محدودة. أيْ التباين بين حياة مستقرة باذخة، وحياة رعوية ذات عوز.

المنخّل، كما تدل عليه تداعياته اللغوية، ينتمي إلى صفوة الشعراء العالميين القلائل الذين عادة ما يتعاملون مع العالم على أنه علاقات لغوية.

من ناحية موسيقية اختار المنخّل لقصيدته مجزوء الكامل: (مُتَفاعِلُنْ مُتَفاعِلا/ ن). وهذه التفاعيل تتمتع بتهاد، وبذبذبات لحنيّة عالية، بموسيقى فارهة واسعة عزّ نظيرها بين البحور الشعرية الأخرى.

تقوم النون المنفصلة في: متفاعلان بمثابة قفلة لامتلاء موسيقي بلغ حدّ تكامله، وما من مزيد.

انتقل الشاعر في عموم القصيدة من مُتَفاعِلُنْ إلى مُتْفاعِلُن (أيْ مُسْتَفعِلُنْ موسيقياً)، عند الضرورة، وبذلك ابتعد عن رتابة التفاعيل وروانيّتها، وفي الوقت نفسه نوّع في الموسيقى حسب الحالة النفسية.

قناديل

▪ لطفية الدليمي

أنشودة ألاباما: اضطهاد مبدعة

القسم الأول

يقول الروائي الفرنسي جيل لوروا عن روايته (أنشودة ألاباما) الفائزة بجائزة غونكور ٢٠٠٧، (إن جوهر روايتي هو انتقام زيلدا من زوجها سكوت فيتزجيرالد الذي دمرها تماما)

رواية أنشودة الاباما المروية بلسان زيلدا زوجة الروائي الأميركي – هي رواية سيرة افتراضية عن شخصية حقيقية ووقائع حدثت أو تخيل الكاتب حدوثها، مستفيدا من وثائق وشهادات وأحداث..

اصدر جيل لوروا عشر روايات تفاوتت ثيماتها بين استرجاع أحداث الماضي والتنقيب في ذكريات الطفولة بسعادتها ومعاناتها والتركيز على موضوعة الحنان والعنف والعشق الجامح والنقد الجارح للمجتمعات..

يكشف لنا لوروا في هذه الرواية بطريقة البوح العاري الجريء عن عذابات الكاتبة زيلدا وهي تعيش تحت وطأة شهرة زوجها الروائي الذي أذلها وقمع إبداعها، ونتابع في الرواية أنشودة رثاء حزينة ومضطربة للنفس يرويها الكاتب بصوت المرأة الرقيقة الجميلة ملهمة سكوت فيتزجيرالد وضحيته.

عاش الكاتبان الشابان حياة صاخبة بين نيويورك وباريس خلال فترة الانحلال الاجتماعي التي تلت الحرب العالمية الأولى، وزاوجا بين الصخب والانفلات الجنسي والتجارب المثلية في وسط يتسم بالقسوة واللامبالاة وتحطيم النفس والآخر إلى جانب استغلال الشهرة الوافدة للحصول على المال ، تصف زيلدا لحظة عقد قرانهما بأنها (البداية العجيبة للتخبط والتشوش والمقدمة الطبيعية للعمى) وتواشجت حياتهما بين عمل متواصل من قبل سكوت وابتعاد عن الحب الذي بدأ عاصفا ثم تحلل كشيء فاسد في دائرة العنف الذي كان يعامل به زوجته ويسخر من كتاباتها ويمنعها من نشر قصصها ويومياتها، بينما كان يكتب ليل نهار ليدفع بفصول رواياته وكتبه إلى الناشر ليغطي نفقاتهما، وكان حضورهما في المجتمعات ونشر صورهما كنجمين على واجهات المسارح والسينمات عملا يحصلان منه على أموال طائلة: يبتسمان للكاميرات والفلاشات ويرتديان أجمل الملابس، تقول زيلدا (نحن اخترعنا الشهرة والمتاجرة بها تحديدا وكنا نسير على السجاد الأحمر في مقدمة الجموع ويتبعنا المصورون ..)

علاقة زيلدا وسكوت المتناقضة دمرت زواجهما وحطمت روح زيلدا ، فبين الحب المرتبك والانكسار والإذعان كانت حياتهما تمضي قدما في خرابها، هي الفتاة الجميلة ابنة القاضي وحفيدة السيناتور حاكم الولاية وملكة جمال ألاباما التي تزوجت ابن بائع ملابس في فوران الحياة الأميركية خلال عشرينيات القرن الماضي، وفي خضم ظهور التيارات الأدبية والفنية والتجارب الجديدة ، كانت زيلدا الجميلة محط إعجاب الرجال ونجوم المجتمع تكافح بواسطة العلاج النفسي المستمر – كي لا يدمرها الحضور الكاسح لزوجها الذي كان يسرق قصصها وينسبها لنفسه تقول زيلدا (كنت أغيّر مخابئ أوراقي ودفاتري كل أسبوع ولكنه كان يكتشفها)، وبدأت مرحلة انهيارها النفسي وكانت تهجس وتحت وطأة شهرة زوجها الذي منعها من نشر أعمالها– أنه يدفع بها نحو الانهيار حتى أوصلها اضطهاده لها إلى دخول مصحة للأمراض العقلية، وهناك استطاعت أن تكتب رواية كاملة وتهربها إلى الناشر وتعترف زيلدا (في الوقت الذي هجر جسدي كان يستولي على افكاري ودفاتري لتصبح هي زوجته حيث نقل منها موضوع روايته الثانية بلا خجل..) وتعترف زيلدا بحزن (لقد مزق يومياتي ووقع باسمه مقالاتي وقصصي التي كتبتها ، سرق فني وأقنع الجميع بأني بلا موهبة ولا فن، إنني ضحية مخدوعة والمغتصب يشعر بالاغتصاب) وكان يخبر الأطباء المسحورين بشخصيته أن الكتابة تشكل خطرا على عقلها فلندعها ترسم، ومن الرسم بدأت تعيل الأسرة إذ لم تعد كتب سكوت تباع في أميركا..(يتبع)

صدر عن المدى

نصف قرن من تاريخ وطن

عرض لتأريخ الحركة الوطنية العراقية

صدر عن دار المدى كتاب (نصف قرن من تاريخ وطن)
–عرض لتأريخ الحركة الوطنية العراقية (١٩٠٠ – ١٩٥٨)
لمؤلفه الشخصية الوطنية المعروفة سالم عبيد النعمان .

هذا الكتاب عرض موجزا لمراحل نضال الشعب العراقي وحركته الوطنية العامة خلال نصف قرن ضد الاستعمار والحكومات العراقية التابعة، انتهت بسقوط النظام الملكي وقيام الحكم الجمهوري.

والواقع فإن هذه الدراسة التاريخية تتطلب أكثر من مجلد لمن أراد التوسع ، وأظن أن هذا العرض الموجز هو استعراض فيه الكفاية.

لقد اجتهدت أن أجمل هذه المراحل في أبواب ثلاثة ولكل باب – فيما أرى – فواصل تميزه عن غيره وان كان يربط بينهما نسيج متواصل متطور.

فالباب الأول يبدأ بالانقلاب التركي علم ١٩٠٨، وينتهي بنهاية ثورة العشرين المجيدة.

أما الباب الثاني ففصوله مكرسة للصراع بين الشعب العراقي وحركته الوطنية من جانب، وبين المستعمرين من جانب آخر، وذلك في العشرينات والثلاثينات من القرن المنصرم.

أما الباب الثالث فيتكلم عن الأربعينات والخمسينات من القرن المنصرم.

وأخيراً فقد وجدت نفسي مقتحما علم التاريخ الذي هو علم معقد تتضارب فيه الأفكار المتضادة وغيرها ولكن ولوج هذا العلم معقد تتضارب فيه الأفكار المتضادة، وغيرها ولكن ولوج هذا العلم بموضوعية يعصم إلى حد من يلجه عن كثير من الزلل وكل إنسان في هذا الوجود معرض للخطأ، فلم يخلق إنسان مجرد عن الخطأ.

بمشاركة أدباء من ١١ محافظة

اختتام فعاليات مهرجان مصطفى جمال الدين السنوي الثالث في الناصرية

حسين العامل
الناصرية

اختتمت مساء الجمعة فعاليات مهرجان الشاعر مصطفى جمال الدين السنوي الثالث في محافظة ذي قار، التي تواصلت على مدى يومي ١٥ - ١٦ آذار، وشارك فيها أدباء وفنانون من ١١ مدينة عراقية.

وتضمنت فعاليات المهرجان التي احتضنتها قاعات المركز الثقافي في الناصرية وقضاء سوق الشيوخ مسقط رأس الشاعر المحتفى به كلمات لرئيس اتحاد الأدباء والكتاب فاضل ثامر وأسرة الشاعر مصطفى جمال الدين، وكلمات أخرى من بينها كلمة التجمع الثقافي في سوق الشيوخ الجهة المشرفة على تنظيم المهرجان، كما تضمنت فعاليات المهرجان الذي أقيم بدعم من وزارة الثقافة قراءات شعرية وجلسات نقدية وفعاليات ومعارض فنية وعروضاً مسرحية ومعارض أخرى للكتب والإصدارات الثقافية والأدبية .

وفي تصريح لثقافية المدى قال رئيس اتحاد الأدباء والكتاب فاضل ثامر عن مشاركته في المهرجان : لقد كان مهرجان هذا العام متميزا بتنوع فعالياته وفضاءاته وبالإقبال المنقطع النظير الذي شهدناه في ندواته الثقافية والأدبية والفنية.

وأضاف فقد لاحظت أن مثل هذه الفعاليات وعلى الرغم من محدوديتها لكنها استطاعت أن تحرك المفاصل الثقافية والفنية والأكاديمية وان تلقي حجرا في البركة الساكنة.

وعن أهمية تكريم الرموز الثقافية في المدن التي شهدت ولادتهم الأولى قال رئيس التجمع الثقافي في سوق الشيوخ فرقد الحسيني للمدى:

إن أهمية مهرجان مصطفى جمال الدين تكمن بكونه معنونا باسم رمز من رموز الثقافة العراقية والعربية وهو تكريم ووفاء للمبدعين جميعا سواء الأحياء منهم أم الأموات، وأضاف وما مشاركة أدباء وفنانين من ١١ مدينة عراقية إلا تأكيد على أن العراق واحد موحد وان الإبداع غير خاضع لجغرافية المكان.

وولد الشاعر مصطفى جمال الدين في الخامس من تشرين الثاني ١٩٢٧ وحصل على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة بغداد عام ١٩٧٩، كما ترأس جمعية الرابطة الأدبية في النجف الأشرف من عام ١٩٧٥ حتى مغادرته العراق عام ١٩٨٠ لأسباب سياسية حيث توفي في ٢٣ تشرين الأول ١٩٩٦ في دمشق . وللشاعر مصطفى جمال الدين مؤلفات عدة من بينها ديوان (عيناكِ واللحن القديم) و(الإيقاع في الشعرِ العربي من البيت الى التفعيلة) و(الديوان) و(البحث النحوي عند الأصوليين) و(القياس وحجيته) و(الانتفاع بالعين المرهونة) و(الاستحسان وحجيته ومعناه).